مقدمة الطبعة الثالثة

أقول في هذه المقدمة ما قلته في مقدمة الطبعة الثانية من ذلك الكتاب؛ فمن النصوص – أدبية أو غير أدبية – ما تتبنى المفارقة استراتيجية دلالية، ومنها ما تتبناها تقنية دلالية، ولكنها في الحالتين تعرف ما تؤديه المفارقة – في سياقات الاتصال المناسبة – من وظائف لا تؤديها في غيرها من الاستراتيجيات والتقنيات.

لقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام ١٩٩٤م، ومنذ ذلك التاريخ لم أر من الباحثين الجدد من انصرف همه إلى استعراض وظائف المفارقة في فنون القول المختلفة إلا ما ندر. أضف إلى ذلك أن بحثًا آخر في المفارقة القرآنية في ضوء لسانيات النص وتحليل الخطاب مازال – منذ صدور كتابي هذا – رهن العدم.

بناء على ذلك، كانت الطبعة الثالثة التي بين أيدي القراء الأعزاء مطلبًا ملحًا. وأنا أرجو بها مرة أخرى أن تستنهض عزم الباحثين إلى محاولة استكشاف وجوه الإعجاز اللغوي للقرآن في عصر تتجدد فيه مناهج اللسانيات وتتطور يومًا بعد يوم.

والحق أنني مدين بالفضل في إصدار هذه الطبعة الثالثة لأخي الكريم الأستاذ/ جمعة هندي، صاحب مكتبة الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي الذي أراه بعلمه ووعيه وخلقه ونمط إصداراته مثالاً طيبًا للناشر العصري، جزاه الله عني وعن ذلك الكتاب خير الجزاء.

المؤلف

القاهرة الجديدة

في ٢٠١٢/١٢/٢٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولي

يتنوع الخطاب تنوعًا لا حدود له. وتتخذ المنطوقات بدورها أشكالاً بنائية وموضوعية وفيرة: فقد تكون غير مباشرة، وقد تكون واضحة، أو شاذة، أو تهكمية أو مازحة، أو خشنة، أو غير مقبولة،أو ساذجة لا تخلو من حمق...الخ. والمفارقة واحدة من الإمكانات الأسلوبية، التي تقدمها منطوقات مختلفة في النص القرآني. وإذا كانت دراسة المفارقة على المستوى اللغوي العام من الأهمية بمكان، فإن دراستها في لغة القرآن الكريم بخاصة، تعد عظيمة الخطر، شريفة القدر.

تعرض المفارقة طريقة من طرائق استخدام اللغة في السياق النصي، والسياق الخارج عن النص. وتتعقد بنية الدلالة في خطاب المفارقة، على علاقة التضاد بين الدلالة الحرفية الأولية للمنطوق. لفظًا، أو مجموعة لفظية، أو عبارة، أو جملة، أو ما فوق الجملة، وبين دلالته المحوَّلة التي يرشحها السياق بنوعيه السابقين، وهي هذه الدلالة، التي يمكن أن نطلق عليها هنا اسم "الدلالة المفارَقية".

وللمفارقة وظائف خطابية، تدعو المخاطب أو القارئ، أن يربط نفسه بها أشد ما يكون الربط؛ لإدراكها وتفسيرها تفسيرًا مقبولاً أو سليمًا. ولذلك كان بحثها – من ناحية أخرى – مما يقود إلى فهم أفضل لتركيب النص وطبيعته الخاصة؛ لأنها تفتح الباب على مصراعيه لملاحظة العلاقات النصية المتنوعة التي تكون أساسًا للنص.

وتحتاج المفارقة – في صناعتها – إلى مهارة لغوية خاصة، كما تحتاج إلى إحكام بالغ الدقة، للعلاقة بين الشكل والوظيفة، أو بعبارة أخرى: بين المقال والمقام.

obeikandl.com

وتعد المفارقة – من زاوية المعجمية التاريخية – عاملاً من عوامل التطور الدلالي للغة، من حيث إن اللفظ يكتسب معها معنى جديدًا، هو من معناه القديم بمنزلة النقيض، وذلك حين يكون الخطاب للتهكم ونحوه.

وبحسب ما يعلمه صاحب هذا البحث، فإن العربية لم تعرف حتى الآن، إلا محاولتين اثنتين لدراسة المفارقة. وهما محاولتان اشتغلتا – في التطبيق – على نماذج من القص العربي المعاصر، ونهجتا نهجًا فنيًّا بلاغيًّا نواته المغزى[1]. من أجل ذلك، فإننا نحسب أن هذه الدراسة التي بين أيدينا، هي أول دراسة موسعة في العربية، تدخل إلى المفارقة: تنظيرًا وتطبيقاً من مدخل لغوي متخصص. وهي – من ناحية أخرى – أول دراسة تحليلية متكاملة لخطاب المفارقة في النص القرآني سعت – في وعي وحرص – إلى الإفادة من علوم لغوية مختلفة، استلزمتها مسألة التحليل ذاتها، من حيث الإجراءات التطبيقية والمنطلقات المنهجية جميعًا. وأهم هذه العلوم: نظرية تحليل الخطاب، وعلم اللغة النصّي، وعلم اللغة الأسلوبي، فضلاً عن علم اللغة العام، بمستوياته التحليلية المختلفة.

وقد بدا للبحث، أن نظرية تحليل الخطاب، هي الدعامة النظرية الأهم والأنسب، التي يستند إليها التطبيق والتحليل والتفسير في لغة المفارقة؛ فإذا كانت المفارقة ظاهرة سياقية في أوليتها، فإن تحليل الخطاب في جوهره، طريقة من طرق النظر إلى اللغة من حيث هي نص في سياق as text in context[2].

وإذا كان العارفون بنظرية تحليل الخطاب، يدركون ما لهذا الاصطلاح، في السنوات الأخيرة، من توزعات شتى: عند البلاغيين، واللغويين الوظيفيين، واللغويين الشكليين، واللغويين الاجتماعيين، واللغويين النفسيين وعلماء النفس المعرفيين، واللغويين التطبيقيين، بل عند علماء التعليم

---

(1) الدراستان من مراجع البحث، وهما: "المفارقة" للدكتورة نبيلة إبراهيم، و"المفارقة في القص العربي المعاصر" للدكتورة سيزا قاسم. وقد نشرتا في مجلة فصول.

(2) فصّلت القول في هذا الأمر في بحث لي بعنوان: "نظرية تحليل الخطاب".

والباحثين في الإنشاء، وعند أصحاب علم اللغة النصي، وغيرهم، فإن هذا البحث، قد مال ميلاً إلى نهج اللغويين الوظيفيين وأصحاب علم اللغة النصي، في تعاملهم مع كيفيات تحليل الخطاب. ويتضمن تحليل الخطاب عند اللغويين الوظيفيين، دراسة العلاقات بين الشكل والوظيفة، في شرائح لغوية أكبر عادة من الجملة أو المنطوق، وإن كان من النادر، أن تكون أكبر من الفقرة في اللغة المكتوبة والحوار القصير في اللغة المنطوقة.

ويتضمن تحليل الخطاب عند أصحاب علم اللغة النصي، دراسة بنية النص، وذلك – عادة – لفحص التنوع في أنماطه، أو اختبار السمات اللغوية المحددة لبنيته.

وإذا كانت علوم النحو واللغة والبلاغة والتفسير وعلوم القرآن، قد نهضت مع النص القرآني وبه – على اختلاف فيما بينها في الاختصاص والغاية – فإن تحليل خطاب المفارقة في النص القرآني، لن يكون – بحال – تحليلاً لغويًا متكاملاً، إلا إذا أفاد حقًا من معطيات هذه العلوم جميعًا. وذلك أمر مهم، اجتهدت هنا في تحقيقه والعض عليه بالنواجذ قدر الطاقة!

ولا ريب أن هذا النهج مبرر بالرغبة في الكشف عن الأبنية المتفاعلة داخل النص، وبيان أهمية المضامين أو المحتويات الخطابية، وكشف أثرها في تحديد الاختيار التركيبي، أو سمات بنية الخطاب، من الناحية المعرفية والأسلوبية.

وغني عن البيان، أن الانقطاع عن القديم – عند اقتضاء الاتصال به – في أي بحث جديد، يصبح مضرة للبحث ذاته، وإضعافًا من قيمته وجدواه، في تأسيس بناء معرفي متين في مجال اختصاصه. من هنا، فإن التأصيل النظري، وسعة الأفق التطبيقي، يوجبان الاتصال بالقديم، والبناء عليه بأساليب جديدة. وهو اتصال لا يتوقف عند ما يسعفنا به مجال التطبيق، وإنما يتجاوزه إلى تحريك المستندات النظرية والفكرية الأصيلة، التي تعمق تعاملنا مع النص، وتوسع معرفتنا به. ويظل صنيعنا في كل ذلك إفادةً وبناءً، لا نقلاً واحتذاءً. ولله درُّ الجاحظ حين قال: "إذا سمعت الرجل يقول: ما ترك الأولُ

للآخِر شيئًا، فاعلم أنه ما يريد أن يفلح!" وأنا أصدرُ في ذلك عن علم بأن لكل حالة آلة، وأن ليس للباحث أن يجري فيما لا يدري!

ومهما يكن من أمر، فقد جعلت هذا البحث في بابين اثنين:

أولهما: مدخل نظري، ضم فصولاً ثلاثة، عرضت في أولها لمفهوم المفارقة. وكشفت في ثانيها عن طبيعة العلاقة بين المفارقة ومعنى المعنى.وفي الفصل الثالث، كانت النظرة إلى المفارقة في ضوء السياق.

أما الباب الثاني، فهو دراسة تطبيقية للمفارقة القرآنية. وقد ضم فصولاً سبعة هي ذاتها الأنواع المختلفة للمفارقة، التي أمكنني استخراجها، وتحليل نماذجها في النص القرآني. وهذه الأنواع السبعة هي: مفارقة النغمة، والمفارقة اللفظية، ومفارقة الحكاية أو الإيهام، والمفارقة البنائية، والإلماع، ومفارقة المفهوم أو التصور، ومفارقة السلوك الحركي.

ولم يدَّخر صاحب هذا البحث جهدًا، في استقصاء النماذج وتحليلها، وتفصيل القول فيما تقدمه من معطيات فونولوجية ونحوية وخطابية. وذلك فضلاً عما تعوِّل عليه من سياقات متنوعة. ونعني بالمعطيات الفونولوجية: الفونيمات، والمقاطع، والمجموعة النغمية. ونعني بالمعطيات النحوية: المورفيم، والكلمة، والمجموعة اللفظية، والعبارة، والجملة الكبرى. ونعني بالمعطيات الخطابية: الحدث اللفظي، وحدث الوظيفة أو المغزى، والعلاقات البنائية والدلالية بين الوحدات الصغرى داخل البنية اللغوية لما فوق الجملة. ونعني بالسياقات هنا: السياقات اللغوية والسياقات غير اللغوية.

ولا ريب أن بحثًا في المفارقة اللغوية في القرآن، يُعَدُّ عملاً تأسيسًا في مجال اهتمامه؛ لأنه بحث في أرفع ما عرفه اللسان العربي من تعبير، وأعلى ما أدركه من طاقات الإبلاغ والإفصاح. من أجل ذلك، تظل الجهود المخلصة في درس لغة التنزيل الحكيم درسًا أصيلاً – بالرغم من جهود القدماء فائقة القدر – أنبل ما يزدهي به البحث اللغوي العربي المعاصر. وهو الأحق بأن يَشدَّ إليه النحارير من علماء اللغة والأسلوب المعاصرين رحالهم؛ حتى يظل دائمًا على حظه الأكفى وقدحه المعَلَّى!. ولا يزعم هذا البحث، أنه قد بلغ من

الحال والمنزلة غايةً ليس وراءها مُطَّلَعٌ لناظر، ولا زيادةٌ لمستزيد، ولا متجاوز لمجتهد، ولكن حسبه أن يكون قد قدم إلى مكتبة الدراسات للغوية للقرآن جديدًا، وأن يجد فيه القرّاء والدارسون من الفائدة قدر ما بُذِل فيه من جهد، وأن يكون بتجرده المنقطع عمّا سواه في تحليل لغة المفارقة: بنيةً ودلالةً، قد كشف عن بعض أسرار الإعجاز اللغوي للقرآن. وبعد، فأحمد الله تعالى، وأسأله التوفيق للصواب.

المؤلف

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

obeikandl.com